تقديم

بقلم: الدكتور عبد الباسط بدر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد شرفني سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي حين رغب إليّ بكتابة مقدمة لهذه الكتاب، وما سماحته في حاجة إلى من يعرفه للناس ولا كتاباته في حاجة إلى من يقدمها إليهم. وما أحسبه فعل ذلك إلا ليهب رابطة الأدب الإسلامي -التي أهداها الكتاب - مكرمة أخرى فيعهد إلى أحد أعضائها بكتابة سطور تكون بين يدي الكتاب، فيطوقها ويطوقني بالصنيع الجميل يضيفه إلى أياديه البيضاء السابقة. فالرابطة غرسة من غراسه الخيرة، ونسأل الله أن تؤتي أكلها غير بعيد.

ولقد قرأت الكتاب قبل أن تدور به آلات الطباعة، ورأيته يتميز بميزتين نادرتين:

الأولى: أنه نتاج قلم يحمل في تكوينه ثلاث سمات متكاملة متداخلة: الأدب والفكر والدعوة إلى الله.

الثانية: أنه في مجمله كتاب تنظير وتقعيد، أقرب إلى أن يكون بيان مبادئ للأدب الإسلامي، يؤصل بشكل مباشر وغير مباشر مجموعة من الأعراف الأدبية والنقدية.

وأما الميزة الأولى: فهي نادرة في عصرنا هذا بالذات. صحيح أن كثيرين يجمعون بين الأدب والفكر - فمن خصائص عصرنا تداخل الأدب والفكر إلى حد التلاحم-، وكثيرين يجمعون بين الأدب والدعوة إلى الله، فلا يخلو بلد إسلامي من أدباء إسلاميين، وغير قليلين من معاصرينا يجمعون بين الفكر والدعوة إلى الله... ولكن الذين يمسكون الخيوط الذهبية الثلاثة: الأدب والفكر والدعوة، في آن واحد قليلون جداً في عصرنا هذا، منهم محمد إقبال وسيد قطب وصاحب هذا الكتاب.

لقد عرفت المجتمعات الإسلامية في شبه القارة الهندية ومعظم الدول العربية وتركيا وأوروبا وأمريكا الشيخ أبا الحسن داعية إلى الله، يسافر إليهم بين الحين والحين، رغم السن والمرض، ويخاطبهم في قضاياهم الصعبة: يشخص الأدواء ويرسم الحلول، فأحبوه ووثقوا به، وتزاحموا للقائه. وقد لمست بنفسي آثار دعوته في شبه القارة الهندية، في مدنها وقراها، وبين طلاب العلم

والمنغمسين في الحياة اليومية. ورأيت طلابه في جامعة (ندوة العلماء) التي يديرها يتخذون من اسم الجامعة لقباً يضيفونه إلى أسمائهم، فيتسمى الواحد منهم بـ(الندوي) تشرفاً وتيمناً، ورأيت المنغمسين في الحياة اليومية، تجاراً وصناعاً وعمالاً، يصرون على تطبيق الإسلام في حياتهم الشخصية، ويبذلون في سبيله ما يبذلون، وسط بحر متلاطم من الهندوس والبوذيين والسيخ والملل والنحل التي تضج بها «بلاد العجائب». ولمست آثار دعوته خارج بلاده، ولا أنسى أياماً أكرمني الله فيها بصحبته في تركيا، كان مضيفوه لا يجدون وقتاً ولا مكاناً يتيح له لقاء الأعداد الكبيرة التي سعت إلى لقائه، ويعتذرون لجمعيات وهيئات وجامعات لضيق وقته وتعبه الشديد، حتى عتب عليهم من عتب، وخاصمهم من خاصم. وفي اللقاءات القليلة التي عقدت غصت القاعات بالحضور قبل موعد الاجتماع، ووقف عدد كبير خارج الأبواب ينصتون إلى مكبرات الصوت،... يومها قرأت في عيون الناس محبة عميقة، وتقديراً عالياً لا يتأتّيان إلا لدعاة صدقوا الله، فزرع الله في قلوب الناس محبتهم وتقديرهم.

وشهدت بعض لقاءاته بالطلاب والمثقفين في وقت

أضنتهم فيه المواجهة الشرسة مع المدنيّة الغربية وأديالها، وأدمتهم مطاردة الطغاة، فتزلزلت روحهم المعنوية، وخبت طموحاتهم، ورأيته يغرس -بعناية المزارع الخبير- في أعماقهم الشعور بعزة المسلم وتفوقه العقدي والحضاري، ورأيت كيف تتحول الزلزلة إلى ثقة راسخة، والآلام إلى مصابرة عالية، والجراح إلى إصرار على مواصلة الطريق.

ومثلما عرفه الناس داعية، عرفوه مفكراً إسلامياً فذّاً، يعي مشكلات عصره وقضاياه، ويتلمس ببصيرة المؤمن الحصيف حلولها. فمنذ أكثر من ثلاثين عاماً طلع عليهم بكتابه القيم «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ووجدوا فيه رؤية دقيقة لعطاء الإسلام، وتتحدث -رغم المرارة والإحباط- عن إمكاناته الهائلة والفجوة المخيفة التي تحدثها غيبته عن العالم... وتوالت كتاباته بعد ذلك حتى تجاوزت خمسة وسبعين مؤلفاً، وخاطبت شرائح المجتمع الإسلامي كلها، وأولت الحكام والمثقفين والطلاب والعرب عناية خاصة، وتحدثت عن طاقاتهم الكبيرة وما يمكن أن تفعله في إعادة القيادة الحضارية للمسلمين.

وأما الجانب الأدبي في شخصية أبي الحسن فأحسب أن قليلاً من الناس يعرفون تفاصيله، غير أنني

موقن أن الحديث عنه لن يكون مفاجأة لمن قرأوا كتبه، فلا بد أنهم أحسّوا به في كتاباته، ولمسوه في ألفاظه المنتقاة، وعباراته الرشيقة، ولا بد أنهم سيحسون به أكثر وأكثر في كتابيه: «روائع إقبال» و «مختارات من أدب العرب». فالأول: عرض أدبي بديع لعدد من دواوين الشاعر المسلم محمد إقبال يظهر بعض جوانب الإبداع والتألق فيها، والثاني: مختارات من عيون الأدب العربي -قديمه وحديثه- تسكب الجمال بين يديك وتقدم لك أطيب الطيب، فتكشف عن ذوق مرهف عند من اختارها، وحساسية عالية للبيان الساحر، وإدراك دقيق لمواطن الجمال فيه.. فضلاً عن الثقافة الواسعة والحس النقدي الرفيع.. وحسبك بهذه الصفات دلالة على الموهبة الأدبية العالية، ألم يقل النقاد عن أبي تمام: إنه في مختاراته أشعر منه في شعره؟.

ولا شك أن من يسمع حديثه في مجالسه، وخطاباته المرتجلة في المؤتمرات والحشود لا يخطئ تلك الصفات. فكلماته بليغة دائماً، تخرج من قبله وتحمل الفكرة بطريق مختصر، وتدعمها بشواهد مناسبة من القرآن الكريم والحديث النبوي ونوادر الشعر وطرائف الأقوال، فتصب في وجدان السامع وتملأ قلبه.

ولقد عرفت في شخصيته الأدبية ملامح متميزة عندما حضرت الندوة العالمية الأولى للأدب الإسلامي التي عقدت في لكهنو عام ١٤٠١هـ، وشهدت بعض مجالسه الخاصة، يومها رأيت -ورأى الحضور- فهمه العميق المتميز للأدب وسمعنا آراءه في طبيعة الأدب ووظيفته، وتقويمه للأدب العربي المعاصر، واستوقفتنا نظراته النافذة وإدراكه لدقائق المشكلات، وسمعناه يتحدث عن الأدب العربي المغترب لا في الغرب، بل في الشرق، حيث استوطن منذ قرون طويلة، واستطاع أن يعيش مدة طويلة، ورأينا المعرض الذي وجه لإقامته العرض الإبداع العربي في شبه القارة الهندية، ودهشنا لوجود هذا القدر من الإبداع العربي منذ القرن الهجري الثاني إلى وقتنا المعاصر في أرض لا يتكلم أهلها العربية، وخجلنا من جهلنا به وتقصير دراساتنا العامة والمتخصصة، التي لم تصل إليه ولم تسمعنا شيئاً عنه.

يومها عرفت، وعرف من معي، أيَّ أديب هذا الرجل!: أديب يبدع في كتاباته ومختاراته وأحاديثه، وأديب يحنو على التراث العربي في واحاته النائية، فيجمعه ويرعاه، ويكلف المجمع العلمي في جامعته أن يقوم -بقدر ما تسمح به إمكاناته المحدودة- بتحقيقه ونشره وتعميمه على

المدارس الإسلامية في الهند. ثم يكتب معرّفاً به... ولا ينهض بهذه الأعباء إلا من عرف قيمة الكلمة الطيبة، وأدرك موقع البيان في الحياة الإنسانية، وملأ قلبه بحب عميق للأدب العربي...

لقد تجمعت في أبي الحسن صفات الأديب الإسلامي العالمي، فهو أديب في العربية وأديب في الأردية والفارسية، وكأنما وضع الله فيه وليجد من يرعاه في عصر القوميات الضيقة، ومحاولات فصل الدين عن الأدب والفكر والسياسة والاقتصاد وجوانب الحياة العملية.. فقد احتضن هذا الرجل -بحماسة المؤمن الصادق- أول تجمع للأدباء الإسلاميين على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم، وظهرت برعايته أول هيئة أدبية إسلامية، لا في العصر الحديث وحسب، بل وفي تاريخ الشعوب الإسلامية كله.. فما أعرف في هذا التاريخ الطويل العريض تجمعاً للأدباء يلتقي فيه الهندي والعربي والتركي والأندنوسي على مفهومات واحدة ومنهج عملي موّحد.. ولئن كانت الروابط والاتحادات والجمعيات الأدبية بدعة حديثة في العالم كله، فإنها لم تعرف تجمعاً للأدباء الإسلاميين قبل أن يحتضن أبو الحسن رابطة الأدب الإسلامي ويرعاها.

ماذا يعني هذا كله؟.. وهل ستتحول مقدمتي إلى قصيدة مديح لأبي الحسن؟.

إن كل من خبر أبا الحسن يعلم أنه أزهد الناس في المديح... يذوب خجلاً إذا أسمعته إياه, ويستغفر الله إذا كررته.. ومن ير بيته ومكتبه ومنازله في سفره يدرك كيف راض أبو الحسن نفسه على التواضع والزهد بما في أيدي الناس وألسنتهم. وإني -وإن كنت أشهد بصفات رأيتها ولمستها- أسعى لأصل إلى آثارها في الكتاب الذي أقدم له. فسوف يرى القارئ -كما رأيت- آثارها في جملة «النظرات» التي حملتها الصفحات، وفي الأسلوب الرفيع الذي يشد القلوب ويربطها بكل سطر وفقرة، فما تكاد تبدأ بقراءة الفصل حتى تجد نفسك تجتاز الصفحة، لتستقر مع نهايته وقد أعجبت بما تقرأ.. وسيزداد إعجابك عندما تعلم أن الكاتب -وإن كان عربي المحتد- نشأ في بيئة غير عربية، ولم يبدأ بتعلم العربية إلا بعد أن جاوز العاشرة من عمره، وأن لغة حياته اليومية ليست العربية.. وستتساءل: كيف اكتسب كتاباته العربية فصاحة عالية تهز النفوس؟.

وسيجد القارئ آثار تلك الصفات أيضاً في الأفكار الجديدة التي يطرحها، والمفهومات التي تتراءى وراءها

تجارب عميقة وفراسة عالية، وسيلمسها في صدق التوجه ونبل المقاصد، وبراءة العرض من الادعاء والاستعلاء.

❖ ❖ ❖

وأما الميزة الثانية للكتاب فهي أنه -في مجمله- كتاب تنظير وتقعيد. وهي -ولا شك- نادرة أيضاً. فكتب التنظير والتقعيد قليلة في عصرنا وفي كل عصر، لأنها تقتضي قدرات خاصة وجهوداً عالية.

وكما قلت في مطلع المقدمة: إن «نظرات» أبي الحسن توشك أن تكون بيان مبادئ للأدب الإسلامي، أو لبعضه على الأقل. ذلك أن القارئ يخرج من الكتاب بعدد من القواعد والأحكام حولك مفهوم الأدب وطبيعته، والموقف من فصوله المنسية، وآفاق الأدب الإسلامي وبعض خصائصه. فلنمضِ في جولة سريعة نستعرض فصول الكتاب ومحتوياتها:

يضم الكتاب بين دفتيه ثمانية فصول تجمعها ثلاثة محاور هي: مقاييس للأدب ونقده، وصفحات مجهولة من الأدب العربي، وآفاق عالمية للأدب الإسلامي.

وأما المحور الأول فيشغل أربعة الفصول الأولى، ويدلك عليه عنوان الفصل الأول، وهو «نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي». وهو كذلك بحق. فأبو الحسن في هذا الفصل يرفض أن يكون الأدب «صناعة تقليدية»، ويرفض أن يقتصر على حياكة المداحين والمتملقين والمتحذلقين، ويقرر أن الأدب كل تعبير جميل صادق عن أحداث هزّت الوجدان. لذلك لا يصح أن نحتبس في دواوين الشعراء المعروفين وصفحات الكتاب المتفرغين، وعلينا أن ننقب عن نصوصه الجميلة في كتابات أخرى لم تقصد تحبير الكلام وتنميقه، إنما قصدت نقل حدث أو فكرة أو إحساس بصدق كامل.. وأي شيء يكون الأدب غير هذا؟.

ويقدم أبو الحسن دليله الحاسم: نصوصاً رائعة من كتب الحديث والسيرة والمغازي والتاريخ، ويقف وقفات جمالية دقيقة على مقاطع منها، تحسن معها أنه يحصي نبض الكلمات ويلمس حرارة العبارة وينقلها إليك في أقوى صيغ التأثير.

وهذه -فيما أحسب- نظرة جديدة للأدب، فتاريخ الأدب الذي درسناه ودرّسناه يقتصر على إبداع الشعراء «الممتهنين» والكتاب «المحترفين»، ولا يبلغ هذه الآفاق الواسعة، ولا يصل إلى تلك المضمونات الإنسانية الحقيقية.

وهذه النظرة تفتح الباب واسعاً لتاريخ جديد يعدي تقويم الأدب في كل عصر، ويعيد صياغة الأحكام على رفعنه وانحداره، وقد يغير فيها الشيء الكثير..

ويأتي الفصل الثاني امتداداً لنظرة الفصل الأول وتطبيقاً لموازينه على نصوص كريمة عظيمة، هي من أصدق الأدب رواية وفائدة ومتعة، فلئن اتفقت مذاهب الأدب على أن الأدب يقدم «شيئاً» للإنسان، قد يكون فائدة، وقد يكون متعة فنية.. فإن نصوص الحديث النبوي تقدم «كل شيء» للإنسان، تقدم البناء الفكري والسلوكي والذوقي، وتقدم المتعة الجمالية في البيان الساحر، لذلك عمد أبو الحسن إلى نصوص الحديث الشريف فبين أبعادها الأدبية وعطاءاتها البلاغية وآثارها النفسية والاجتماعية، ونبه إلى جوانب لا ينتبه إليها إلا متأمل ذواقة هدى الله بصيرته إلى دقائق الأمور.

ويأتي الفصلان الثالث والرابع مراجعة لفنون أدبية محددة هي: أدب التراجم والتقديمات والرحلات. وهي أيضاً مراجعة نقدية، تعيد النظر في طبيعة هذه الفنون وصفاتها الرئيسة. وقد دأب الدارسون على تقديم كل من هذه الفنون بتعريفات محددة وعبارات تبين طبيعتها

ووظيفتها، فأدب التراجم -فيما قرأنا عنه- عرض لحياة أشخاص متميزين يهتم برصد الأحداث الكبيرة فيها وآثار المترجَم له، غير أن أبا الحسن يضع شروطاً لمن يتجرد له، يستنبطها من الصفات التي يريدها لهذا الفن.. فضلاً عن المعرفة الواعية الناقدة، والقدرة على البيان، والدقة والأمانة والشعور بالمسؤولية، يشترط في كاتب التراجم وجود «الدافع النبيل» أي أن فن التراجم لا بد أن يرتبط بدافع نبيل ويصدر عنه. وينبه المترجمين إلى ضرورة أن يدركوا أن للكلمات «درجة حرارة وبرودة» وأن عليهم أن يحسوا بها، ويحسنوا توظيفها.. وهذه لمحات ذكية يدركها من عايش هذا الفن طويلاً وتعمق فيه، وهذا جانب جديد في شخصية أبي الحسن وتراثه العائلي نكتشفه عندما نعرف أنه نشأ في بيئة هوايتها التراجم والتاريخ، فوالده مؤلف أكبر موسوعة في ترجمة رجال الهند المسلمين، وجدّه سبق إلى وضع موسوعة بالفارسية.

وأما أدب الرحلات فيضع أبو الحسن يده على سمات مهمة فيه، فهو ينبه إلى أهمية النظرة الشاملة إلى المجتمع الذي يكتب عنه الرحالة، وإلى ضرورة التسجيل المباشر للأحداث والمشاهدات لرصد المشاعر الحقيقية

والانطباعات التي تلد فجأة وتموت بعد حين، والخواطر التي لا يعيدها التذكر، ويقف عند قضية يخالف فيها كثيراً من كتاب الرحلات ومنظّري هذا الفن الأدبي، هي: ذات الأديب ومكانها في أدب الرحلات. فيرفض أن ينحّي الأديب فكره ومشاعره وعقيدته ويتحول إلى آلة تصوير «باردة»، ويوجهه إلى أن يسكب ذاته في تعليقات ذكية وتحليلات صادقة تستحضر العاطفة وتملأ الوجدان. وقد طبق أبو الحسن ذلك في كتابه «مذكرات سائح في الشرق العربي» وأثبت أن تدخل الأديب بالتعليق والتحليل يحول العمل من الأداء الجامد إلى عرض يضج بالحياة والأحاسيس والأفكار.

بعدها يبدأ المحور الثاني في الكتاب. وهو محور يفاجئ القارئ كما فاجأنا حين سمعناه أول مرة في الندوة العالمية الأولى للأدب الإسلامي عام ١٤٠١ هـ. فقد قرأنا عن الأدب العربي في الأندلس، وكتب عنه الدارسون مجلدات تملأ مكتبة واسعة، وقدمت فيه رسائل ماجستير ودكتوراه..

وقرأنا عن الأدب العربي في المهجر، ومنحناه ما يقارب -أو يفوق- اهتمامنا بالأدب الأندلسي.

ولكننا لم نقرأ قط عن الأدب العربي في شبه القارة

الهندية، ولم نكتب كتاباً عنه. لذلك سيكون هذا الفصل مفاجأة مفرحة ومؤلمة للقراء والدارسين وأساتذة الجامعات، مفرحة إذ يكتشفون واحات نائية خصيبة للغة العربية وأدبها قديماً وحديثاً. هذه الواحات هي «مدرسة شبه القارة الهندية العربية والأدبية» التي تحدث عنها أبو الحسن في الفصل الخامس. ومؤلمة إذ ينبت أمامهم سؤال موجع: أيبلغ بنا التهاون بتراثنا أن نغفل عن سفر كامل من أسفار التراث العربي؟ وهل هو السفر الوحيد الذي غفلت عنه الدارسات ونسيه الدارسون؟ أليس في بيئاتنا الإسلامية المنتشرة من أقصى أندنوسيا إلى أعماق إفريقيا واحات أخرى للعربية قد تعطر تاريخنا الأدبي واللغوي بزهور نادرة؟.. ومن يدري؟ فقد تكون فصولاً جديدة ذات خصائص تميزها عما في بلادنا. لقد فرحنا بعطاء جماعات هاجرت إلى الأمريكتين وحافظت على هويتها وعواطفها مدة لا تبلغ القرن الواحد، ومللأنا مناهج الدراسة -من الإبتدائية إلى الجامعة- بنصوص من إبداعاتها، وقلنا الكثير عن محافظة رجالها على لغتهم ووجدانهم العربي.. ولو فتشنا عن امتداداتهم اليوم لوجدناها قد انتهت أو شارفت على الانتهاء.. فهل من

العدل أن نسكت عن بيئة أدبية لغوية كاملة حافظت على وجدانها العربي المسلم قروناً متطاولة، وما زالت امتداداتها قائمة حتى اليوم؟ وهل من خدمة العربية وآدابها أن نغفل عن تلك المناجم الغنية؟.

إنها دعوة مفتوحة للمؤسسات الثقافية، في البلاد العربية بخاصة أن تستفيد من هذه «الشرارة» التي أطلقها أبو الحسن، فنوقد بها عزائمنا، ونعقد دراسات جادة عن البيئات الأدبية واللغوية العربية المنسية، نتتبعها حيثما كانت، ونستعين بأهلها، ونعكف عليها دراسة وتقويماً نبحث عن سر بقائها قروناً طويلة رغم عوامل التذويب والضياع، وخلافاً للنواميس المعروفة. فإذا كشفنا السر جعلناه عاملاً من عوامل خلود الأدب في الحياة الدنيا، ورفدنا به إبداعنا المعاصر، أو جعلناه في وصيتنا إلى من خلفنا كي يحسنوا استثماره... ولعل رابطة الأدب الإسلامي، بعالميتها المميزة، تأتي في مقدمة من يقع على كواهلهم عبء هذا العمل المضني.

ويأتي المحور الثالث ليعلن أن الأدب الإسلامي ذو آفاق عالمية، وليعرض جزءاً من هذه الآفاق هو «المدرسة الأدبية الإسلامية الهندية». وهذه مدرسة أدبية إسلامية غير عربية، لغتها لغة الثقافة والأدب في تلك البلاد:

الأردية والفارسية، ولكن نبضها إسلامي ومشاعرها إسلامية وقضاياها قضايا المسلمين.

وحديث أبي الحسن عن هذه المدرسة يؤكد أن الأدب الإسلامي عالمي، يستمد عالميته من عالمية الإسلام فيستوعب آداب الشعوب الإسلامية كلها.

صحيح أن اللغة العربية هي لغة الأدب الإسلامي الأولى، وأن الحلم الكبير لدعاته -بل ولكل مؤمن- أن تكون لغة المسلمين جميعاً. ولكن، ونحن على أعتاب الحلم لا يجوز أن نغفل عن الواقع، فكثير من الشعوب الإسلامية تتكلم لغات محلية خاصة، وتكتب بها، وتعيش حياتها الثقافية بمفرداتها، وتعبر عما يجيش في صدور أبنائها بألفاظها وعباراتها. ومن التجنّي أن نتجاهل هذه الحقيقة أو نتجاوزها. وقد ظهر في ٨٧٥هـ الأمم أدباء مبدعون امتلأت وجداناتهم بالإسلام، وتفجرت قرائحهم بعطاءات مدهشة، واستطاعت قصائدهم وقصصهم ومسرحياتهم أن تهز شعوبهم، بل إن بعض إبداعهم تجاوز خارطة بلادهم إلى آفاق عالمية، فتُرجم إلى لغات عدة، وحظي بإعجاب المتذوقين والدارسين، وليس بعيداً عنا محمد إقبال وما كتب عنه بالإنجليزية والألمانية..

إذن ثمة جناح آخر للأدب الإسلامي يتمثل في آداب

الشعوب الإسلامية غير العربية، وثمة عطاءات أدبية عظيمة فيها، لا يصح أن تبقى بعيدة عن مثقفينا ومتذوقي الأدب في بلادنا. فقد تجاوزت الثقافة الأدبية في العالم كله حدود اللغات والجنسيات واهتمت الساحات الأدبية في كل بلد -بما في ذلك بلادنا- بآداب الشعوب الأخرى، وقامت مجلاتنا ومؤسساتنا الثقافية بترجمة نصوص كثيرة من آداب الشعوب الأوروبية والأمريكية خدمة «للثقافة» وأداء «لرسالتها»!.. فكيف بنا ونحن نقف على آداب شعوب تجمعنا بها عقيدة واحدة وصلات تاريخية راسخة وآلام وآمال مشتركة؟ .. لقد وضعنا بين أيدي قرائنا آلاف الصفحات عن أدباء إنكلترا وألمانيا وفرنسا وروسيا وأمريكا ودول شرقية وغربية أخرى تحت عنوان «الثقافة» وبهدف التعرف على العطاء الإنساني في ألوانه المختلفة، فهل يجوز لنا أن نحجب عنهم عطاءً أثّر في حياة ملايين المسلمين من إخواننا، وحظي بإعجاب الدارسين والنقاد في أنحاء شتى من العالم؟ أليس من الغفلة أن يجدّ أصحاب الاتجاهات الوافدة من الشرق والغرب في ترجمة الأدب الذي ينتمي إلى اتجاهاتهم وكتابة عشرات الكتب عنه حتى نتصور أنه صورة لأدب تلك الأمم... ويغفل أصحاب التوجه الإسلامي الصادق عن أدب إسلامي بديع يمثل حياة تلك

الشعوب ووجدانات أبنائها؟.

لقد مر بنا وقت كنا نحسب فيه أدب ناظم حكمت الممثل الحقيقي للأدب التركي، والمجسِّد الصادق لتطلعات شعبه المسلم، فلما طلعت علينا الدراسات المنهجية الصحيحة، واحتككنا بالساحة الأدبية في تركيا عن قرب عرفنا أن ناظم حكمت صوت لاتجاه واحد وضيق، يكاد يكون نشازاً في نسق الأصوات المبدعة هناك، عرفنا محمد عاكف: الذي أنشد الشعب التركي قصائده في أشد محنه، وتغنى بها في جهاده ضد قوات الحلفاء، ومسح آلامه على توقيعاتها في محنة العلمانية، وما زال يتغنى كل يوم بجزء من رائعته «نشيد الاستقلال» الذي أصبح النشيد القومي الرسمي لتركيا. وعرفنا «نجيب فاضل» المبدع المدهش الذي كان مدرسة كاملة في الشعر والمسرح، وعرفنا سيزائي قره قوج ومصطفى مياس أوغلو وعلي نار... وأعداداً أخرى من الأدباء يجسدون بحق واقع الشعب المسلم في تركيا وتطلعات.

والأمر نفسه في شعوب إسلامية أخرى، فلولا شهرة «محمد إقبال» العالمية التي فرضت نفسها على آداب كثيرة لما عرفنا شيئاً عن أدب الشعب المسلم في شبه القارة الهندية، ولظننا أن «طاغور» وحده صوت ملايين الناس هناك..

وهكذا يفتح لنا أبو الحسن باباً آخر في الأدب الإسلامي ما زالت دروبه بكراً وما زالت دراساته ميداناً واسعاً للدارسين، ويقدم نماذج لما في ذلك الميدان، فيعرض جانباً من أدب جلال الدين الرومي، وهو جانب تراثي، وآخر على أبواب قرننا الميلادي هذا هو أدب محمد إقبال. وكلا العرضين متميز في ملامحه وأهدافه. فالأول يتتبع ملامح إنسانية دقيقة هي: الحب في تساميه نحو المطلق وتوجهه إلى مقر علوي يلوذ به، وعالم القلب الذي لا يسافر فيه إلا أصحاب القلوب الغنية، وقيمة الإنسان، هذه قضية كبيرة في الآداب بعامة وفي الأدب الإسلامي بخاصة. فالإنسان في الأدب الإسلامي قيمة لا تعلو عليها إلا قيمة جلال الخالق عزّ وجلّ، وقد أبدع الرومي في عرض هذه القضايا بلغة القلب والعاطفة... وأبدع أبو الحسن بتقديم هذا الجانب من شعر جلال الدين الرومي.

وأما العرض الثاني فهو تقويم لرسالة الشاعر محمد إقبال، وتوضيح لمضمونات أدبه، ورسالته -بمضموناتها- جزء من رسالة الأدب الإسلامي ومضموناته بعامة. وقد بين لنا أبو الحسن الرسالة والمضمونات: فالأدب فيها كائن حي ينبع من أعماق الوجدان ويحمل لهب المشاعر ليوقد في صدور الآخرين نار الحيوية والإبداع، ويحثهم على بناء

شخصية إسلامية متكاملة، وحياة مثالية رائعة.. فكل ما قاله إقبال وقدمه لنا أبو الحسن سوابق تؤسس أعرافاً وأحكاماً أساسية في الأدب الإسلامي ونقده.

وهكذا تتكامل المحاور الثلاثة لتعرض «نظرات» رائد من رواد الأدب الإسلامي في قضايا إسلامية في الأدب والنقد هي: مفهوم الأدب وطبيعته وحدوده، وتوجه الأنظار إلى المناجم الغنية المهملة للعربية وأدبها، والآفاق العالمية للأدب الإسلامي.

ولا شك أن هذه «النظرات» تنظير للأعراف والقواعد والمقاييس، وريادة في دروب الأدب الإسلامي ونقده.

ولا شك أيضاً أنه ليس من شأن الريادة أن تكون عملاً تفصيلياً يقف عند كل جزئية، ولا من شأنها أن تكون دراسة معمّقة لا تترك شيئاً لمن بعدها. أبداً... فالريادة خطوة جريئة في أرض جديدة، وسطر في صفحات لم تكتب بعد، ووثبة تفتح الباب المغلق ليدخل منه الآخرون، وهي قبل ذلك كله موهبة لا يحملها إلا من آتاه الله فراسة قوية، وإدراكاً دقيقاً لطبيعة الأشياء، وقبساً من نور يضيء مجاهل الطريق.. وقد ملك أبو الحسن ذلك، ففتح لنا في «نظراته» أبواباً لا باباً واحداً -وهذا من توفيق الله له- أملاً في أن ندخل منها ونعبّد الطريق...

وبعد:

فقد أثبت أبو الحسن أنه رائد في أكثر من ميدان: في العمل الدعوي المعاصر، وفي رعاية أول رابطة للأدباء الإسلاميين، وفي تنظير بعض قواعد الأدب الإسلامي، وفي الكشف عن مناجم مهملة لأدبنا العربي.

فيا أيها الرائد الكبير:

هديتك الغالية لرابطة الأدب الإسلامي رسالة كريمة تسلمناها ووعينا سطورها.. ولسوف نجعل المبادئ التي تضمنتها بعضاً من أعرافنا، وتوجيهاتها جزءاً من قواعدنا إن شاء الله، ونرجوه سبحانه أن يعيننا على تبليغها كل من يهمه أن ينتشر في مجتمعاتنا الإسلامية أدب يجسّد الشخصية المسلمة ويعززها.. ويرتقي بها، إلى أن تعود «خير أمة أخرجت للناس».

أثابك الله عن الإسلام والمسلمين خير ما يثيب به الدعاة المجاهدين، ومد في عمرك، وجعل أعمالك صفحات ناصعة في ميزان حسناتك.

د. عبد الباسط بدر
عضو رابطة الأدب الإسلامي